Dirasat: Human and Social Sciences, Volume 53, No. 6, Supplement 1, 2026, 9578

Deanship of Scientific Research

Code- Switching and its Implications in Arabic Texts

Abdelmonem Gedamy *

Department of Linguistics, Semitic and Oriental Studies, Faculty of Dar El-Uloom, Minia University, Minia, Egypt.

Received: 04/11/2024
Revised: 15/12/2024
Accepted: 30/12/2024
Published online: 15/1/2026

* *Corresponding author:*
abdelmonemgedamy@gmail.com

Citation: Gedamy, A. (2026). Code-Switching and its Implications in Arabic Texts. Dirasat: Human and Social Sciences, 53(6), 9578.
https://doi.org/10.35516/Hum.2026.9578

© 2026 DSR Publishers/ The University of Jordan.

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

Abstract

Objectives: This research aims to clarify the concept of code-switching in sociolinguistics and analyze this phenomenon through Arabic texts. The study seeks to identify linguistic differences within these texts to understand the implications embodied in these variations.

Methods: The research employs an analytical descriptive methodology to examine the phenomenon of code-switching in contemporary Egyptian and Palestinian Arabic. It explores various contexts to uncover the meanings and functions associated with this linguistic phenomenon.

Results: Code-switching serves to express social meanings, convey specific values, and act as a stylistic tool to create particular effects on the audience. It carries rhetorical functions that influence public perception. Switching to colloquial Arabic often aims to make political discussions more relatable and accessible to the public, fostering a sense of inclusivity. Conversely, switching to Modern Standard Arabic (MSA) symbolizes power, authority, formality, and objectivity. As noted by J. Gumperz, code-switching frequently occurs in quotations, as seen in poetry where popular traditions are integrated within classical linguistic frameworks to evoke emotions and cultural resonance. While MSA is linked to formality and objectivity, colloquial language fosters intimacy and informality.

Conclusion: Speakers use code-switching strategically to align their speech with their audience, enhancing relatability and communication effectiveness. The stylistic variations in an individual's speech reflect the social dynamics and variations present in specific contexts.

Keywords: Sociolinguistics; code; code-switching; diglossia; Arab linguistic reality.

التحوّل الشفري وتضميناته في نصوص عربية

عبد المنعم السيد جدامي*

قسم علم اللغة والدراسات السامية والشرقية، كلية دار العلوم، جامعة المنيا، المنيا، مصر.

ملخّص

الأهداف: يهدف هذا البحث إلى توضيح مفهوم التحوّل الشفري في اللسانيات الاجتماعية ويحلل البحث هذه الظاهرة من خلال نصوص عربية، ومن ثم فإن البحث يهدف إلى رصد الاختلافات اللغوية في النصوص بغية الوصول للتضمينات المجسدة في هذه التباينات.

المنهجية: يحلل البحث في إطار منهجية تحليلية وفق المنهج الوصفي التحليلي ظاهرة التحوّل الشفري في مادة عربية معاصرة مصرية وفلسطينية، وتحليلها في سياقاتها المختلفة بغية الوصول لدلالات هذه الظاهرة.

النتائج: يأتي التحوّل الشفري للتعبير عن معانٍ اجتماعية، ولتوصيل قيم اجتماعية محددة، أو كأداة أسلوبية لإبداع تأثيرات على المتلقين؛ ذلك أن له وظيفة خطابية ممثلة في ترك تأثير محتمل على الجماهير. وربَّما يأتي التحوّل للعامية محاولة لإنزال النقاش في السياسة من برجها العالي، ورغبة لتوصيل أفكاره إلى الجمهور والتقرب إليهم، أو لحميمية الكاتب مع القراء، أو للسخرية والازدراء، أو محاولة من الكاتب أن يجعل القارئ يشعر أنه جزء من المحادثة. في حين يأتي التحول للفصحى رمزًا للقوة والهيمنة والرسمية والموضوعية. وكما جاء عند (جومبيرز) توظيف التحوّل الشفري يأتي من خلال اقتباسات، وهذا ما تحقق في الشعر، عندما اقتبسوا موروثات شعبية بمستواها اللغوي داخل قصيدة فصيحة، لتحمل مضامين مشحونة بعواطف وأحاسيس. وفي النصوص السياسية، يتحول للعامية لتفسر ما جاء بالفصحى، وكذلك لإقناع المتلقين، أو للتقرب إليهم. جاء التحول للفصحى مرتبطًا بالرسمية والموضوعية، في حين جاءت العامية مرتبطة بالحميمية وعدم الرسمية.

الخلاصة: يستعمل المتكلم التحوّل الشفري استجابة للجمهور، وليكون أكثر شبهًا بالجمهور الذي يتواصل معه، أما التباين الحاصل في الأسلوب داخل كلام أي فرد، فمستمد من محاكاة التباين الموجود بين المتكلمين في الوضع الاجتماعي.

الكلمات الدالة: اللسانيات الاجتماعية، التحوّل الشفري، الشفرة، الازدواجية اللغوية، الواقع اللغوي العربي.

مقدمة

تطورت اللسانيات الاجتماعية بشكل قوي منذ الثلث الأخير من القرن العشرين، وقد وضّح هذا المجال كثيرًا من القضايا المهمة الخاصة باللغة في المجتمع، فقد قدم الباحثون تعريفات للمجتمع اللغوي على أنَّه: "أي مجموعة إنسانية مميزة من خلال التواصل المنظم والمألوف في هيئة مشتركة من العلامات اللغوية، وعلى كونه مجموعة من المجموعات المتشابهة من خلال اختلافات كبيرة ذات دلالة في استعمال اللغة .(Gumperz, J. 1972: P. 219)"، وبالرغم من أنَّ المجتمع اللغوي يتشابه ويتشارك سلوكًا لغويًا واحدًا تقريبًا إلَّا أنَّ البحوث في هذا المجال بينت أنَّه لا يوجد شخصان متماثلان تمامًا في قدراتهما اللغوية، كما لا يوجد موقفان اجتماعيان متشابهان تمامًا، فالبشر ينفصلون بعضهم عن بعض من خلال درجات قوية في الطبقة الاجتماعية، والأصل الإقليمي، والمهنة، ومن خلال عوامل مثل: الدين، والنوع، والجنسية، والأصل العرقي، وأيضًا من خلال الاختلافات النفسية مثل أنواع خاصة من المهارات اللغوية وكذلك الأمية، والمظاهر الخاصة بالفرد، وهذه ليست سوى بعض الاختلافات الكثيرة بخاصة التي تؤثر في تنوع الأفراد في الكلام (انظر تفصيل أكثر في: (Wardhaug , R. 2006: P. 130 – 131.).

يجعلنا هذا التنوع في الذخيرة اللغوية نتساءل لماذا؟ لنجد الإجابة من الأمريكي)فيشمان(الذي يقول إنَّ الذخيرة اللغوية لها توزيع وظيفي اجتماعي خاص. (Fishman, J. 1972: P. 51

)، وليس هذا خاصًا بالمجتمعات ذات الثنائية اللغوية أو التعدد اللغوي، بل لدى المجتمعات وحيدة اللغة، يقول فيشمان: "ليست المجتمعات اللغوية ذات التعدد اللغوي فحسب التي تستعمل ذخيرة لغوية ذات تنوعات، بل ربَّما في المجتمعات وحيدة اللغة، تكون الذخيرة اللغوية متضمنة لتنوعات طبقية واجتماعية عديدة، أو تنوعات لطبقات اجتماعية أو إقليمية، أو حتى تنوعات لغوية لطبقات اجتماعية إقليمية أو مهنية من اللغة نفسها(Ibid., P. 48.)، ويضرب مثلًا لذلك من مدينة نيويورك الأمريكية حيث يجد وحيدي اللغة المولودين فيها يتحدثون فيما بينهم بصورة مختلفة في مناسبات عديدة، وقد نجد لديهم اختلافات صوتية ومعجمية وتركيبية.(Ibid., P. 48). ومن ثم فإن البحث يرصد الاختلافات اللغوية في النصوص)مادة البحث)، ويحاول الوصول للتضمينات المجسدة في هذه التباينات.

مشكلة البحث

مشكلة البحث هي ظاهرة التحوّل الشفري الموجودة في المجتمعات اللغوية، التي تأتي وفق الباحثين في اللسانيات الاجتماعية في المجتمعات ثنائية اللغة والمجتمعات وحيدة اللغة، ويركز البحث على هذه الظاهرة في مجتمعنا اللغوي العربي من خلال نصوص لغوية عربية مصرية وفلسطينية، ليحلل التباينات اللغوية وتضميناتها الدلالية.

أسئلة البحث

- ما هي ظاهرة التحوّل الشفري وما هي تعريفات هذه الظاهرة في اللسانيات الاجتماعية؟
- ما أهم النظريات القائمة على هذه الظاهرة؟
- هل هي موجودة في المجتمع اللغوي ذي الازدواجية اللغوية؟
- ما دلالات هذه الظاهرة في مجتمعنا اللغوي العربي؟

أهداف البحث

- يهدف البحث إلى تعريف ظاهرة التحوّل الشفري.
- يعرض لأهم النظريات القائمة حول هذه الظاهرة.
- توضيح أسباب وجود ظاهرة التحوّل الشفري.
- تحليل ظاهرة التحوّل الشفري في نصوص عربية.
- توضيح دلالات التحوّل الشفري في مادة البحث.

أولًا: التحوّل الشفري، دلالة المصطلح، وأهم النظريات القائمة حوله

(أ) تعريفات التحوّل الشفري

التحوّل الشفري(Code– Switching)(1) له تعريفات عديدة، وهناك مصطلحات قريبة منه، يعرفه (جومبيرز) بأنَّه "تجاور داخل تبادل الكلام نفسه لفقرات الكلام، منسوبة إلى نظامين نحويين أو أنظمة فرعية .(Gumperz, J. 1982: P. 59)، وهو هنا وضّح الظاهرة بكونها ظاهرة لغوية في تواصل لغوي محدد، تمتزج فيه العناصر اللغوية المنتمية إلى لغتين أو لهجتين، والواضح أنَّه لم يقصر هذه الظاهرة، ظاهرة التحوّل الشفري على

التحوّل بين اللغات المختلفة، وقد ميّز هنا بين التحوّل الشفري(Code – switching) عن التحوّل (Transfer) ومصطلحات أخرى وسوف نقف عند هذا لاحقًا.

وتعرفه (مايرز- أسكوتن) بقولها:" تناوب المتكلمين ليس بين لغات مختلفة فحسب؛ بل بين تنوعات لغوية مختلفة من لغة واحدة، داخل محادثة واحدة. (Myers – Scotton, C. 1993: P. 2) و"تجاور ما بين شفرتين/كودين أو أكثر من لغات مختلفة أو لهجات للغة نفسها" (Ibid., p. 2)، وقد ذكرت أنَّ مصطلح تنوعات (Varieties)يعني اختيارات من كلِّ مستويات اللغة، ولذا فإنَّ الاختيارات ما بين التنوعات تشتمل مثلًا: اختيارات من لغة واحدة بدلًا من أخرى، لهجة بدلًا من أخرى، أسلوب أو نوع كلامي(Register) بدلًا من آخر، وصيغة بدلًا من أخرى. (Mayers, Scotton, C. 1998: P. 18)

وترى ريم بسيوني أنَّه يمكن تطبيق هذه المفاهيم على الواقع اللغوي العربي؛ ذلك أنَّ تعريفات (جومبرز) و(مايرز– أسكوتن) أكثر قبولًا من التعريفات الأخرى لظاهرة التحوّل الشفري، وأكثر دقة في استعمال مصطلح (Code) بدلًا من مصطلحات (لغة) و(تنوع). ويتضح من خلال بسيوني أنَّها ظاهرة تخص قدرة المتكلم على التناوب ما بين اللغات المختلفة، أو بين التنوعات المختلفة من لغة واحدة، وأنَّ التحوّل الشفري يصف كلام الثنائي أو متعدد اللغة، وكذلك متعدد التنوعات داخل لغة واحدة، حيث تتجاور عناصر من تنوعين أو أكثر من لغة واحدة أو أكثر في جزء من الخطاب. (Bassiouney, R. 2009: p. 29).

ومصطلح التحوّل الشفري(Code–Switching) مميز عن الاقتراض (Borrowing)، ففي حين يكون التحوّل الشفري من خلال نظامين نحويين ومعجميين مستعملين في إنتاج جملة أو نص، يتضمن الاقتراض تكييف عناصر معجمية من لغة إلى لغة أخرى (Muysken, P. 2000 , P. 70)، وهناك من يفرق بينهما من خلال ثلاثة معايير: البنية، والتكرار، ووظيفة الخطاب، ومن ثَمَّ فإنَّ الاقتراض يتضمن غالبًا حالات تكون كلمة مفردة أو تعبيرًا مكيفًا صوتيًا مع اللغة المُقترِضة، وليس له وظيفة خطابية، في حين في التحوّل الشفري تجاوز للكلمات المفردة التي تحتفظ ببعض سماتها الصوتية، ويكون له وظيفة تداولية في الخطاب. (Albirini, A. 2010: P. 9).

وهناك عدد من الباحثين استعمل مصطلح (Code Mixing) بالدلالة نفسها المستعملة في مصطلح ((Code – Switching، وهناك من ميزوا بين المصطلحين على أساس وظيفي، وليس على أساس تركيبي، فقد قرر (أوير) أنَّ التحوّل الشفري والتحوّل المختلط يتعذر تمييزهما تركيبيًا، فكلٌّ منهما تناوب معتاد ما بين لغتين، غير أنَّه في حين يكون التناوب ما بين الشفرات اللغوية/ الكودات له وظيفة حوارية ومعنى، أمَّا الحالات الفردية للتناوب في التحوّل المختلط، ففيها المتكلم والمُخاطَب ليس لهما أيّة علاقة بالتفسيرات الخاصة بالخطاب.

وهناك من استعمل مصطلح التحوّل الشفري ليشير إلى تحول داخل الجملة، في حين يستعمل التحوّل المختلط ليشير إلى التحوّل فوق الجملة (Ibid,. p. 10.). وهناك من يجعل مصطلح (Style – Shifting) للتحول في مجتمع وحيد اللغة، ويستعمل التحوّل الشفري في حالة التحوّل في المجتمعات ذات الثنائية اللغوية. وهناك بعض الباحثين يفضلون تسمية هذه الظاهرة بمصطلح (Code Mixing) وهو التناوب داخل الجملة. وقد استعملت (نتإلى مازراني) في دراستها مصطلح (Code–Mixing) بمعنى ما هو مستعمل الآن بمصطلح (Code – Switching)، بالرغم من أنها ترى أنَّ هناك تباينًا ما بين التحوّل الشفري والتحوّل المختلط، فالتحوّل الشفري عندها له عادة وظيفية خطابية، ومحدد كظاهرة تكون من خلال أجزاء من شفرة/ كود متبوعة بأجزاء من شفرة أخرى في المحادثة نفسها، وله تأثير على أكثر المستويات اللغوية التركيبية، والصرفية، والصوتية، والمعجمية. أمَّا التحوّل المختلط من ناحية أخرى محدد كاختلاط لتنوعات مختلفة داخل محادثة واحدة، ومن ثَمَّ فإنَّ التحوّل المختلط عندها ليس لديه تأثير على كلِّ مستويات اللغة. وتعلق ريم بسيوني على تصور (مازراني) بقولها ربَّما يكون تمييزها مقيدًا داخل إطارها النظري، وترى أنَّ تعريفاتها غامضة، وتذكر أنَّ بعض اللغويين مثل)مايرز –أسكوتن(لا تميز ما بين التحوّل الشفري والتحوّل المختلط، وترى التمييز بينهما غير ضروري. (Milory, L. and Gordon, M. 2003: P.210).

وتري ريم بسيوني أن اعتبار التحوّل الشفري والتحوّل المختلط عمليتين متميزتين يكون صعبًا إن لم يكن مستحيلًا، ومن ثَمَّ أثبتت مصطلح (Code – Switching) (2) لإعطاء دلالة ما استعملته (مازراني)(Code–Mixing). (Ibid., P.30 – 31).

وحول أسباب وحوافز ظاهرة التحوّل الشفري قامت أبحاث عديدة بهذا الشأن ومن الجدير بالذكر أنَّ ظاهرة تحول الفرد من لغة إلى أخرى يُنظر إليها نظرة سلبية، فقد اعتبرت هذه الظاهرة دليلًا على عدم الكفاءة، ويشير (كيم) إلى أنَّ اللسانيين الكبار المطلعين على قضايا الثنائية اللغوية مثل (هوجن) و(فانرايش) يريانه كغفلة شاذة من المتكلمين في اللغة، وأنَّ لديهم نقصًا في كلتا اللغتين والثقافتين. (Kim, E. 2006: p.56).

(ب) أهم نظريات تحليل ظاهرة التحوّل الشفري

هناك من يشير إلى أنَّه من خلال بحث (بلوم وجومبيرز 1972) و(جومبير1982) قد تغير البحث في هذه الظاهرة، فقد بُحثت بوجهة نظر أثنوجرافية، ذلك أنَّ تحولًا حدث نحو الرؤية التفاعلية والوظيفية للتحول الشفري. (Gardner – Chlors, P. 2009: P. 98)، فقد استهل)جومبيرز) في عمله في اللهجات الاجتماعية في الهند، وأخذ مفهوم التحوّل الشفري كظاهرة حوارية من ياكبسون، وركز عمله على الاحتياج إلى نظرة للوظائف الاجتماعية التي تؤديها هذه التناوبات، وقد اهتم بها في الأعمال التالية، وفي عمله (1956) وصف ثلاث مستويات من اللهجات الريفية، واللهجات

الإقليمية والهندية المعيارية/ الفصحى في منطقة بالهند، كلُّ مستوى منها يخدم وظائف مختلفة، ورأى أنَّ معظم المقيمين من الرجال وبخاصة الذين يسافرون إلى حد بعيد، يتكلمون كلًا من اللهجة الريفية واللهجة الإقليمية، الأوَّل يستعمل في البيت ومع المقيمين المحليين الآخرين، والثاني يستعمل مع الناس غير المحللين، وخلص إلى أنَّ هناك علاقة ما بين المتكلمين تؤثر في اختيار التنوع.

وجاء بحث (بلوم) و(جومبيرز) (1972) ليوضح أنّهَ عبر التحوّل الشفري تأتي المعلومة المنظمة، واقترح الباحثان تمييزًا وظيفيًا في هذا البحث للهجتين إحداهما فصيحة وأخرى غير فصيحة، وقد وصف الباحثان مستويين، هما (Bokmal) و(Ranamal) في مستوطنة(Hemnesberget) بالنرويج ككودات/ شفرات مميزة وليستا لغتين مميزتين، والكودات/ الشفرات مميزة من خلال توسع المتكلمين الأصليين الذين يعتقدون أنَّهما تنوعان مستقلان، ويتساءل كلٌّ من (بلوم) و(جومبيرز) لماذا رغم التشابهات الكبيرة بين التنوعين يتكلمون التنوعين بتباينات سياقية "فالفروق اللغوية ما بين اللهجة والمستوى الفصيح مشروطة بعوامل اجتماعية" (Blom,Jan – Petter. and Gumperz, J. 1972: P.417)، ومن ثَمَّ فإنَّ كلَّ تنوع بدا كمستوى مختلف في الصيغة اللغوية، بالإضافة إلى الوظائف الاجتماعية المميزة لكل منهما، وقد أشار الباحثان إلى أنَّ الطلاب في هذه القرية النرويجية يستعملون اللهجة من المستوى الفصيح ليس بسبب الموضوع فحسب؛ وإنَّما أيضًا بسبب استعمال الإشارات الفصيحة للاشتراك في عضوية جماعة المفكرين، ومن ثَم فإنَّ الطلاب كأفراد وضعوا في اعتبارهم حقيقة أنَّ كلَّ المشاركين في تفاعل مع جمهورهم، يشتركون في الخلفية الثقافية العالية، وأنَّ استعمال هذا المستوى/ الكود بدلًا من الآخر له وظيفة خطابية في تطابق المتكلم مع مجموعة اجتماعية محددة. (Ibid., P. 434).

وقد ناقش (جومبيرز) تقسيم كود/ شفرة نحن (We) وهم (They)، ذلك أن هناك شفرتين: كودين مختلفين مستعملان من خلال متكلمين، مستوى/ شفرة (نحن)، ومستوى (هم)، المتضمن في مستوى (نحن) مرتبط بالبيت كرباط للأسرة، في حين مستوى/ شفرة (هم) مرتبط بتفاعلات عامة، وكذلك مرتبط بدلالة الرسمية. (Gumperz, J. 1982: P. 95)، وما يهمنا نحن هنا أنَّ (جومبيرز) يرى أنَّ التحوّل الشفري يدل على معلومة مسبقة متكافئة/ متعادلة مع ما هو موجود في سياق تستعمل في لغة واحدة، وهذا التحوّل الشفري منقول عبر عمليات لغوية على مستويات البروسودي والمعجم والتراكيب، إنَّه يولد الافتراضات التي من خلالها يتقرر محتوى ما يُقال. ويعلق (نيلب) على كلام (جومبيرز) هذا قائلًا إنَّ مثل هذه المعطيات السياقية هي تناوب/ تبادل لمستويات اللغة ربَّما يؤشر إلى إشارات المتكلمين، وقد يوفر وسيلة للمتكلمين للإشارة إلى كيفية تفسير دلالات الكلام. (Nilep, Chad. 2006: P. 90). وهذا معناه أنَّ داخل اللغة يأتي التحوّل ما بين المستويات له مضامينه وإشاراته، ببنيته الصوتية/ البروسودية والمعجمية والتركيبية المتباينة مع باقي المستويات، وقد رأينا (بلوم) و(جومبيرز) يصفان مجتمعًا وحيد اللغة، لكن له مستويين ولكلٍّ منهما وظائفه الاجتماعية، فمستوى(نحن) يكتسب ويؤكد الهوية، في حين مستوى(هم) مرتبط بالرسمية وأنشطة خارج الجماعة. فالمجتمع الذي وصفاه في النرويج مجتمع ذو ازدواجية لغوية، (أي وجود مستويين لغويين)، وليس ثنائية لغوية، (أي وجود لغتين)، بمعنى أنَّه شبيه لواقعنا اللغوي في المشرق العربي في كون التحول الشفري في مجتمعنا مكون من مستويات لغوية تنتمي إلى العربية، أي إلى لغة واحدة، وقرر الباحثان أنَّ اللهجتين/ المستويين المستعملين في هذه القرية يتعايشان، وكلٌّ منهما له وظيفة بالمستوى المحلي، وله مكانة كبيرة ومفهومة كبناء للهوية المحلية، وفخر في المجتمع، أمَّا المستوى الفصيح فللتعاملات التجارية، والدين، ووسائل الإعلام، والنخبة ذات الثقافة الرفيعة، وكلٌّ من التنوعين جزء من الذخيرة اللغوية للمجتمع، فالمتكلم ربَّما يأمل في أداء أدوار مختلفة في المحادثة، ومن ثَمَّ تختلف الوسائل اللفظية وتكون الشفرات/ الكودات مختلفة.

وقد ميَّز (بلوم) و(جومبيرز) ما بين التحوّل السياقي (Situational Switching) الذي يفترض وجود علاقة مباشرة ما بين اللغة والموقف/ السياق الاجتماعي، والتحوّل المجازي (Metaphorical Switching) حيث يكون الاستخدام غير المتوقع لكود/ لشفرة ممَّا يشير إلى رمزية السياق/ الموقف، وبالصلات المرتبطة به. ويتأكد فهم)جومبيرز(لعمليات التحوّل ما بين الأساليب داخل اللغة الواحدة أو بين لغتين من قوله: " تتحكم المعايير الاجتماعية أو القواعد في استعمال اللغة، فتبدو للوهلة الأولى الوظيفة التي تشبه القواعد النحوية، فيصوغ المتكلمون جزءًا من المعرفة العميقة التي من خلالها يستعملون الصيغ لتوصيل المعنى، بالأحرى بدلًا من الادعاء بأنَّ المتكلمين يستخدمون اللغة استجابة لجماعة محددة سلفًا. ويبدو معقولًا أن نفترض أنَّهم يبنون في مكتسباتهم ولجمهورهم فهمًا للمعايير السياقية لتوصيل المعلومة المجازية حول كيف هم يقصدون بناء كلامهم بطريقة مفهومة.(Gumperz, J. 1982: P. 61).

وينتهي (جومبيرز) في دراساته أنَّ للتحول الشفري بنوعيه وظائف عديدة، يراها في الاقتباسات، يذكر (جومبيرز) أنَّ أمثلة كثيرة يتحول المتكلم من لغة إلى أخرى أو من مستوى إلى آخر داخل لغة واحدة من الاقتباسات مباشرة أو كلام تقريري. ويتحول المتكلم من أجل تحديد المخاطب، وهو يتحول هنا معتمدًا على شخص واحد يتحدث إليه في حوار بلغة زميل (Ibid., P. 75). وفي صيغة تعجب، ويتحول ليصوغ تعقيبًا أو حشوًا لجملة. Ibid., P. (77). وكذلك في التكرار، حيث يكرر المتكلم رسالة أو جزءًا منها بلغة أخرى، أو بمستوى آخر من أجل التشديد على رسالة ما، يقول (جومبيرز) إنَّ مثل هذا التكرار ربَّما يخدم في توضيح ما يقال، أو التشديد على رسالة ما". (Ibid., P. 78). ويتحول إلى لغة أخرى فينتج جزءًا محددًا ليفسر ما يقال. ولإضفاء الطابع الشخصي، حيث يتحول المتكلم ليعكس رأيًا شخصيًا أو معرفة شخصية، وربَّما تعكس سلطة ونفوذًا. (Myers – Scotton, C. 1997: P. 236).

هذه وظائف التحوّل الشفري ما بين مستويات اللغة الواحدة، وما بين لغتين أو أكثر، ويتضح من هذا أنَّ هذه الظاهرة تحلل بنيويًا ووظيفيًا من خلال دراسات (جومبيرز)، وقد أثرت في نموذجين/ مقاربتين مهمتين في هذا المضمار، نموذج مايرز–أسكوتن، ونموذج أوبر، وفي السطور الآتية سوف أوضح نموذج (مايرز –أسكوتن) لقربها من بحث الظاهرة في عالمنا العربي، واتخاذ الباحثين في دراسة واقعنا العربي نموذجها لتفسير الظاهرة لدينا.

أمَّا اتجاهات دراسة التحوّل الشفري، فترى (مايرز- أسكوتن) أنَّ هناك اتجاهين مختلفين للبحث في هذه الظاهرة، وأحد الاتجاهين البارزين هو الاتجاه الخاص باللسانيات الاجتماعية، وهو أكبر من الآخر، حيث يركز على: كيف تعكس الاختلافات في المجموعة باستعمالها أنماطًا من التحوّل الشفري مواقف المجموعة بالنظر إلى نفسها في علاقتها بالمجتمع الأوسع. والاتجاه الثاني يركز على البنية الصرفية والتركيبية للتحول الشفري، وربطها بالنظريات التركيبية الحديثة. (Ibid.,: P. 236).

ثانيًا: تحليل ظاهرة التحوّل الشفري في نصوص عربية

قدمت لنا اللسانيات الاجتماعية بداية من عمل المستشرق (فرجسون) في (1959) حول الازدواجية اللغوية جوانب مهمة في تفسير وتحليل الواقع اللغوي العربي المعاصر، ونتج عن عمل (فرجسون) تصور أنَّ الواقع العربي يشهد ازدواجية لغوية (Diglossia) مكونة من الفصحى الحديثة واللهجات/العاميات، الأولى هي التنوع/ المستوى الأعلى، وله وظائف محددة، والثاني مُشكَّل من العاميات، وله أيضًا وظائف شبه مقننة من قبل المجتمع.

لم يستمر تصور (فرجسون)، بل جاءت عليه تعديلات، وجاء عمل المستشرق (بلانك) ثم السعيد بدوي الذي قرر– كما اقتبسنا منه آنفًا– أنَّ لكلَّ المواقف الاجتماعية في شؤون الحياة اليومية التي لا حصر لها مستلزمات "فكل من يشترك في موقف اجتماعي من أبناء البيئة المصرية، يجد نفسه وقد دخل في قبضته المستلزمات، التي تفرضها التقاليد الاجتماعية على المشتركين في مثل هذا الموقف – سواء أكانت لغوية أو غير لغوية– دون أن يحتاج الأمر إلى تفكير واع من جانبه. (بدوي، 1973، 85). وجاء (بنجامين هاري) وغيره ليصف مع بدوي وغيره الوضع بأنَّه مستويات أو كنتنيوم (Continuum) سلسلة متصلة لغويًا، ويرى هاري أنَّ هناك عدة عوامل لغوية اجتماعية تتحكم في استعمال المستويات اللغوية، منها: مكان المشهد، وزمانه، وكون المستوى رسميًا أو غير رسمي)، والموضوع، ومهارات المتحدثين بالفصحى المعاصرة، والحالة الشعورية للمتحدثين، والمشاركون في المناقشة، ووظيفة الخطاب، والعلاقة الشخصية بالجمهور، كل هذه الأمور تتحكم في استعمال المستوى اللغوي.(Hary, B. 1996: P. 75-77)

وجاءت الدراسات اللسانية الاجتماعية في مرحلة جديدة في دراسة الواقع اللغوي العربي لتدرسه بالمناهج السائدة في دراسة التحوّل الشفري (Code-Switching)، لتبين– كما سبق توضيحه- السمات الخاصة بظاهرة التحوّل الشفري في واقعنا اللغوي، وجاءت دراسات عديدة في هذا المضمار. على أيَّة حال يحاول البحث أن يوضح ما هو حاصل في اللسانيات الاجتماعية، والدراسات اللسانية الاجتماعية المحللة للوضع اللغوي العربي. كما أنَّ ما سيأتي في الصفحات التالية محاولة لوصف ظاهرة التحوّل الشفري في نصوص عربية معتمدًا على طرق التحليل السائدة في اللسانيات الاجتماعية.

وهناك تصورات مختلفة عند العرب للعربية ولهجاتها، لكننا هنا نقتبس ما ذكره الأستاذ محمد فريد أبو حديد، يقول: "يمكنني شخصيًا أن أقول إنَّ كثيرًا من الأساليب العامية أصدق أداءً للمشاعر من بعض الأساليب القديمة." (أبو حديد 2006، 72)، ربما يكون ذلك صحيحًا لارتباطها بحميمية البيت وحواراته، لكن المستويات العامية لها وشائج كثيرة تربطها بالفصحى في كثير من الأمور، كما أنَّه من الناحية الوظيفية في مجتمعنا اللغوي ليست مؤدية لكلِّ الوظائف، فالفصحى لها الوظائف الأهم، المكانة، والقوة، والرسمية، والموضوعية. والواضح أنَّهما مستويات داخل متواصل لغوي يقف كلٌّ منهما عند جانب من جانبي المتواصل اللغوي، وبينهما عدد من المستويات/التنوعات المختلطة من الفصحى والعامية/اللهجة، وهذه المستويات عربية في جوهرها.

كلُّ مستوى من مستويات العربية يمثّل طريقة للتعبير، كلٌّ منها له توظيف مختلف داخل السلوك اللغوي في المجتمع، وحتى المستوى العامي له مضامين ودلالات عبر استعماله في البيئات والطبقات الاجتماعية، كما أنَّه يحمل مضامين وعلاقات الأسرة، ويحمل كغيره من المستويات اللغوية معنى اجتماعيًا، وهذا مؤكد وواضح. والذي تأكد أيضًا أنَّ اللغة، أيَّة لغة في تباين مستمر، وهذه التباينات تابعة لتباينات اجتماعية، وأيدولوجية اللغة "ذات أهمية بشرية ليس بسبب المتغير العرقي البشرى، وإنَّما لأنَّها صلة وسيطة ما بين أشكال المجتمع وصيغ القول.. أيدولوجيات اللغة ليست حول اللغة منفردة. فعلى الأصح إنّهم يتخيلون (أي البشر)، ويحدثون ترابطات للغة مع الهوية، والجماليات، والأخلاق، والمعرفة. وعبر هذه الروابط هم لا يدعمون الشكل/الصيغة والاستعمال اللغوي فحسب، وإنَّما يدعمون أيضًا إلى حد كبير مفهوم الشخص والمجموعة الاجتماعية، بالإضافة إلى أنَّ المؤسسات الاجتماعية الإنسانية مثل الطقوس الدينية، والتنشئة الاجتماعية للطفل، والعلاقات ما بين الجنسين والدولة القومية، والتعليم والقانون. (Woolard, K. 1998: P. 3)، ومعنى ذلك أنَّ الأيدولوجيا هي النظام الثقافي لأفكار حول العلاقات الاجتماعية واللغوية في مجتمع ما. ومن ثَمَّ يكون التباين اللغوي نابعًا من تباينات اجتماعية وأيدولوجية، وفي الصفحات التالية أحلل بعض النصوص العربية التي نجد فيها التحوّل الشفري.

وأوّل نص أقف عند لجمال عبد الناصر، يقول في خطابه23 ديسمبر (1957) بورسعيد: "وانتصرنا أيضًا فهذه المعركة، النهاردة وأنا بلتقي بكم في بورسعيد ونحن نشعر بنصر ونحمد الله على هذا النصر، ونحتفل بهذا النصر/النصر في الحرب المسلحة ضد الدول الكبرى، النصر على العدوان، النصر على القوى الغاشمة، النصر على سياسة القوى.

نبصر أنفسنا ونشوف ليه انتصرنا في هذه الفترة وليه ما كناش بنتصرف في الماضي، انتصرنا النهاردة لأن مصر ملك لأبنائها، مش ملك فئة من الناس. (جمال عبد الناصر، المجموعة الكاملة، مجلد 9، ص7).

نلاحظ هنا تحولًا ما بين الفصحى المعاصرة والعامية القاهرية، ليصوغ أسلوبًا مختلطًا، وهذا الشيء ليس عبثيًا، وإنَّما هو بوعي من عبد الناصر، وقد اهتمت اللسانيات الاجتماعية بالعلاقة التكاملية التي يمكن أن تبدو موجودة ما بين السياقات الاجتماعية الإنسانية المختلفة وتنوعات اللغة، ومن ثَمَّ فإنَّ تنوع اللغة هو مجموعة شكلية و/ أو جوهرية مرتبطة بانتظام بنوع خاص من السياق الاجتماعي. وهذا لو طبقناه على خطاب الرئيس عبد الناصر لوجدنا أنَّه كان يخطب للجمهور بعد عدوان(1956)، ويبيّن كعادته في خطاباته يخطب بإحساس قوي، وتمكن قوي من مستويات العربية، وقد أراد دائمًا تفاعلًا مع الجمهور، فقد استعمل عبد الناصر – حسب عبد الجواد (Abdel- Jawad, H. 1986: P.24) ما يسمى بلغة الجماهير "The Languages of Masses" ليكون أقرب إلى الجمهور للتأكيد على مبادئه، ولحمل رسائله لجماهير أوسع، مثل الفلاحين، والعمال، وفي الحقيقة لقد كانت خطاباته بأحاسيس قوية، فقد كان يخطب بكلِّ جوارحه، وكان خطيبًا جماهيريًا، وقد كان استعماله لمستويات اللغة وفقًا للدور الذي يريده عبد الناصر.

وفي خطاب له بتاريخ 22 يوليو (1962) في القاهرة يتحول فيه كثيرًا من فصحى صافية إلى لهجة قاهرية صافية، وفي بداية الخطاب يتكلم بسمات فصيحة صافية، وبسلسلة من الأبنية المتوازية، وبعد قليل ينزل إلى مستوى لهجة القاهرة، يظهر هذا واضحًا من قوله: "من حق كلّ شاب، من حق هذا الجيل كلِّه الذي واعده القدر أن يتطلع وراءه إلى ما قام به من أعمال/ نرى ما نبص ونشوف إيه العمل اللي عملناها". (جمال عبد الناصر المجموع الكاملة، المجلد الخامس ص 307).

تظهر في الجزء الأوَّل من هذا النص بالعربية الفصحى الحديثة مثل نطق (القاف) في كلمة (حق) بشكل فصيح، وكذلك صوت(الذال) في(الذي) وكذلك (أن يتطلعَ) وينزل بعد ذلك في الجزء الثاني من هذا الاقتباس من خطابه إلى لهجة القاهرة بسمات عديدة (بنبص ونشوف..)، ترى (نتإلى مزراني) في تحليلها لهذه الظاهرة في هذا الخطاب أنَّه يقوم بعملية تفسير لجمهوره لجعل جمهوره يفهم ما يركز عليه، وتتسق الرسالة التي يود أن يوصلها، وهذا التباين اللغوي مرتبط بدقة باختلافات في وظيفة اللغة، وهدف الخطاب، فعندما يتحول المتكلم من العربية الفصحى الحديثة إلى اللهجة هو يهدف إلى مشاركة الجمهور في خطابه من خلال لجوئه إلى عواطفه لتوضيح المعنى، أو على حد ما تقوله (مزراني) إنَّه يقترب إليهم بمفردات بسيطة، وكذلك بمحتوى خطابه، وبالمشاركة الفعالة المؤسسة عبر تجميع من السمات اللغوية اللهجية، لكي تفهم بسهولة. (Mazraani, N. 1997: P. 97).

وانتهى المستشرق البريطاني (هولز) من تحليل بعض خطابات عبد الناصر في هذه الظاهرة إلى أنَّ خطبه تمثل أنماطًا من الحوارات الحية المرتجلة، وقد كان يغير الشفرة/التنوع اللغوي بشكل مفاجئ ما بين الفصحى ولهجة القاهرة كاستراتيجية تواصلية تضفي دلالات ومضامين، قال عنها (هولز) إنَّها تأسيس لعلاقة بلاغية، فهو يستعمل العربية للموضوعات المجردة، ويستعمل لهجة القاهرة لنقل المشاعر والواقعية، وما يتصل بقوة بما هو شخصي في الوقائع. (Holes, C. 1993: P.33).

فعبر خطاب عبد الناصر نجده يريد توضيح المقامات والأدوار، فإذا ما رغب في ربط نفسه بمكانة كانت الفصحى ذات المكانة والنفوذ والاحترام، وكذلك إذا ما أراد عرض فكرة تجريدية، أمَّا إذا أراد أن يشدد على التضامن مع جمهوره فسوف يستعمل اللهجة، وهذا النمط من الخطابات، أو هذه الاستراتيجية من التواصل موجودة في خطب اللغة الإنجليزية، فإنَّه من خلال التغيير في التنغيم واستعمال أسلوب الحوار في الوضع الرسمي، المتكلم قد يفاجئ جمهوره ويحافظ على حيوية الخطاب، فالأسلوب في الحوار حين ينحى إلى استعمال اللهجة يعطي انطباعًا باشتماله على دائرة من حميمية المتكلم. (Mazraani, N. 1997: P.213).

ونلاحظ ظاهرة التحوّل الشفري ما بين مستويات العربية في الشعر العربي الرصين عند شعراء كبار أمثال محمود درويش وسميح القاسم، ومن ذلك ما جاء في قصيدة محمود درويش بعنوان "موال" يقول فيها:

" يما.... مويل الهوى

يما..مويليا

ضرب الخناجر.. ولا حكم النذل فيا" (محمود درويش: الأعمال الكاملة، ج1، ص 77).

يقدم درويش قصيدته بسؤال بالعامية، نستطيع أن نقول إن هذا التحول في شفرات النص يحمل ألوانًا من الدلالات، فهذا الموال مرتبط بالأم/الأرض، يصدّر به قصيدته الفصيحة، وهذا له دلالاته، فالموال نمط لغوي يحمل ذكرى وخبرة مجتمع، قد يكون دالًا على ألم مجتمع من احتلال، أو مصيبة ألمت بمجتمع، أو فرحة شعب، وعادة ما يكون المستوى اللغوي البسيط أكثر دلالة في هذا الشأن، فهو هنا يعني للحقيقة الواقع بهذا الموال العامي البسيط الذي أصبح خالدًا في ذاكرة المجتمع الذي يمثله الشاعر، وهذا الموال استعان به درويش ليضفي على قصيدته شيئًا جديدًا.

عندما يقدم محمود درويش وهو صاحب الشعر الفصيح على استعمال هذا الموال الشعبي البسيط فإنَّه يدرك دلالاته، فهو كما قال (موال)، والموال عبق داخل ذخيرة المجتمع اللغوي، وهذا الموال بالذات له دلالات قوية في المجتمعات العربية التي كانت تقع تحت الاحتلال بأنواعه، وبالذات فلسطين، كما

أنَّ دلالة (يما) الأم في ذخيرتنا اللغوية له دلالات عديدة منها الأم: الأرض، ذلك الرمز ذو الشجن والمرارة عند ذوي الأرض المحتلة، والأم: فلسطين الحبيبة.

ويستخدم الشاعر الفلسطيني سميح القاسم(الموال) بلغته الشعبية/ العامية في قصيدة جميلة بعنوان: القطار العائد من الصعيد، يمزج فيها بين الفصحى والعامية، يقول فيها:

" ويا قطر الصعيد، سمعت موالًا
ولن أنساه
ولن أنسى الفتى الغناه
يا مسافر القاهرة سلم على الغالي
وقل له عليت جباهنا بسدنا العالي
وقل له إزاي تسيب يا أبو البلد بلدك
وإزاي تسيبني وأنا ما كملش موالي؟
وعبر نوافذ الموال
تراءت يا قطار الكادحين حدائق الأجيال" (سميح القاسم: ديوان، ويكون أن يأتي طائر الرعد، 1970م، ص24-25).

يأتي التحول الشفري هنا بدلالات مهمة في النص، ففي استخدامه للموال الصعيدي بمستواه اللغوي/شفرته، له دلالة مؤكدة، ربَّما لكون الرئيس عبد الناصر صعيديًا، فيكون المستوى اللغوي معبرًا عن هوية عبد الناصر. ولقد اعتنى سميح القاسم بتوظيف التراث الشعبي من المفردة حتى الأغنية الشعبية في شعره، ولم يكن التوظيف عملية عشوائية بل عملية واعية، أراد من خلاله استغلال الخبرات الجماعية والصيغ التعبيرية الكامنة في هذا الفلكلور، ويفوح من خلال هذه الأشكال التعبيرية انتماء الشاعر لوطنه وشعبه، ويصبح هذا جزءًا مهمًا من منهج الشاعر وطريقة إبداعه، وهذا حاصل في تضمين سميح القاسم للأغنية الشعبية في أكثر من موضع من دواوينه، ومن ذلك قوله:

هذه القنطرة الباقية منك يا منازل جدي
تبرعت بها جدتي للثوار ليشتروا بندقية
سأحليها بماء الذهب والكتابة الكوفية:
" ومرشوشة بالعطر يا دار لفراح
ومشكلي بالورد والمسك فواح
يا دار يلي تلملم شملنا فيك
وإن عشنا يا دار بالحنا لحنيك
وأجيب بنا يبنيلك علاليك"
في مغرب الشمس الوقور وشروقها الطازج
أفترش التراب لأقرأ برقيات التعزية
تحتها هذه القنطرة (أبو شاويش 2007).

حدث تحول شفري في النص الشعري، فالنص فصيح، وأضاف الشاعر هذه الأغنية الشعبية بمستوى عامي -من الموروث الفلسطيني- لتصنع ثراءً للنص بتعميق المخزون العاطفي الذي يحمله المستوى اللغوي للأغنية، ذلك أنه شحن النص بمضامين الشعور الجمعي لكل فلسطيني، فكل مستوى يستمد معناه من مناسبة السمات اللغوية مع الجماعة الاجتماعية، وبهذا يربط النص بماضي النضال والجهاد من أجل الدفاع عن الأرض والهوية، ويوحي بما تضمنته الأغنية الشعبية قوة العلاقة الروحية بين الإنسان وداره التي هي رمز للوطن، والأغنية مستواها اللغوي/شفرتها تعكس ملامح هوية الفرد الفلسطيني وتقويه، وقد ولَّد بها دلالات وطنية عميقة، يقول د. إحسان عباس: " لا غرابة أن نجد الإقبال على هذا اللون التراثي كبيرًا عند بعض شعراء الأرض المحتلة، وخاصة عند توفيق زياد وسميح القاسم، حيث يتسع صدر الشاعر للفظة الدارجة والمثل الشعبي والأغاني، فهناك إحساس بأنَّ الاتكاء على هذا التراث، لا يكفل التجاوب الأوسع مع ذلك الشعر وحسب؛ بل يقدم أيضًا شهادة على الاعتزاز بالموروث المشترك...وتمثل الأغنية الشعبية منعطفًا هامًا في قصيدة سميح، بل هي أحيانًا تحتل دور الخرجة في الموشح، أعني أنَّها تعتمد أولًا، ثَمَّ تبنى القصيدة على وفقها" (عباس: 1978، ص 119).

ربما نتساءل ولماذا صنع هذا التحول الشفري؟ إن الأغنية الشعبية تتسم بأنَّها بمستوى لغوي عامي بسيط، تخاطب الجماهير، وتحرص على اشتراكه في أدائها، ومن ثَمَّ تحمل التلقائية وعمق الدلالة، وتصور حياة الواقعية، تثبت من خلال استعمالها الشعر هوية الشعب الراسخ، ويجعل سميح من الأغنية متكأ يمكن من خلاله الوصول إلى أكبر عدد من الجماهير، فهو يعرف عندما يقترض هذه الأغنية أو ذاك الموال الشعبي درجة

الأهمية في الحياة اليومية، وينقله إلى سياق فصيح ليفيد منه في خدمة فكرته، ويقدمها بأسلوب مثير من ناحية، ويعزز هدف القصيدة، وعندما سُئل سميح القاسم عن استخدامه هذا قال: "هذا هو هدفنا أن نصل إلى قلوب الناس سواء بأساليبنا الجديدة أو باستخدام ما أبدعه الشعب من أنغام أو صياغات شعرية". (أبو شاويش، 2007، 62). ومن ثم فإن استعمال التحول الشفري يعتمد بقوة على الوظيفة التي يؤديها كل مستوى. ويلاحظ أن تجارب الشعر الجديد سعت إلى أن تقترب من لغة الحياة اليومية " باستعمالها الألفاظ من اللهجات العربية الدارجة، وميلها إلى مقاربة لهجة الحديث العادي وتضمينها لبعض نماذج الأغاني الشعبية" (الورقي: 1979، ص 174 -175).

يحاول الشاعر الحديث أن يقترب بلغة شعره من الحياة اليومية ليكون أكثر قربًا وتفاعلًا مع جمهوره، لأنَّه يهدف إلى التأثير فيه والتعبير عن أحاسيسه ومشكلاته. وتتشابك في القصيدة الأغنية والموال الشعبي ليشير إلى هوية قائله، يحمل مضامين مشحونة بعواطف وأحاسيس تحمل هموم الإنسان، وفي استخدامه يعرف الشاعر أثر الموال والأغنية الشعبية، وفى نفس المتلقي في المعركة مع العدو؛ ولذلك باتت القصيدة واحدة متشابكة من التضمينات التراثية الشعبية، بتوظيفه للتحول الشفري من الفصحى إلى العامي وما تحمل من مضامين. فيتحول الشاعر هنا بين الشفرات/ المستويات، من الفصيح إلى المستوى العامي/المحلي آملًا في اكتساب المزيد من التفاعل، ودعم عاطفي من جمهوره، هذا ما حاول صنعه سميح القاسم، فقد استعمل لغة الجمهور ليكون قريبًا منهم، ويركز على نقل مبادئه لنقل رسائله- القائمة على الجهاد وحب الأرض – لجمهور أكبر، متعلمين وغير متعلمين. ومن ثم تتضح الوظيفة الخطابية للتحول الشفري الممثلة في التأثير على الجمهور.

توضح هذه الأمثلة أنَّ الشاعر حينما يستخدم المستوى الخاص بالموال والأغنية الشعبية فهو يتحول من تنوع فصيح إلى تنوع آخر يهدف من خلاله استغلال ما في هذا التراث من مضامين قوية تعزز التواصل المميز بين الشاعر وجمهوره، وهكذا يتأكد أنَّ اللغة ظاهرة اجتماعية مرتبطة وبقوة بالبنية الاجتماعية، ونظام القيمة في المجتمع، وتنوعات اللغة مقدرة بشكل مختلف، والناس لديهم مواقف مختلفة، وبآراء ومشاعر تجاه هذه التنوعات، ومن ثَمَّ يتبع ذاك كون التحوّل من تنوع إلى آخر منظمًا، ومشروطًا وظيفيًا، ومستعملًا من قبل المتكلمين بطرق منظمة وبارعة لتوصيل قيم اجتماعية محددة، ولتحقيق احتياجاتهم الاجتماعية واللغوية. (Abdel – Jawad, H. 1986: P. 36) غير أنَّ استخدام المستويات اللغوية الدنيا في الشعر الفصيح/الرصين له أسباب فقد نشأت - حسب (كليف هولز) – في خمسينيات القرن العشرين تابعة للتحول الواسع في العالم العربي نحو الاستقلال السياسي في العالم العربي في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وكان الاستقلال السياسي مرافقًا لبدايات الآداب العربية القومية التي تعكس المحيط الثقافي والموضوعي التي كانت تشغلهم آنذاك، وتحديدًا بعد وصول الرئيس عبد الناصر عام 1954 والاتحاد الاشتراكي إلى السلطة بأجندة أعماله الشعبوية (Holes, C. 1995: P. 304).

وتبع ذلك التحوّل السياسي ظهور استعمال اللهجة في الأدب الرصين الذي جاء في الأدب الساخر أولًا، ثم في أجناس أخرى من الأدب، وكان الأديب يوسف إدريس(1921- 1991م) أكثر من غيره ارتباطًا بالاتجاه الجديد في استخدام اللهجة في الأدب القصصي، باعتبار أنَّ ذلك من الواقعية، أو كما يقول (هولز) لكي يبدع جنسًا أدبيًا مصريًا مميزًا بلغته ومحيطه من السرد القصصي، فاستعمال اللهجة كان عنده نتيجة منطقية طبيعية لذلك، فقد أراد من خلال استعمال اللهجة في الحوار تأسيس معنى للواقع الاجتماعي، ومشاركة وجدانية في تصوير حياة الشعب بواقعية، ومشاركة للرئيس عبد الناصر الذي لا يتردد في استعمال اللهجة القاهرية في خطاباته للشعب. (Ibid., P. 306.). هكذا رأي (هولز) وإن كنت أتصور أن هناك أسبابًا أخرى.

ويتضح التحول الشفري في أعمال يوسف إدريس ومنها "جمهورية فرحات" وشخصية فرحات فيها، صول شرطة، في حي لطبقة عاملة في القاهرة، ويستخدم في الرواية اللهجة والفصحى بنظامية مقننة، يقول إدريس:

" فرحات: اسمعي يا بتّ، هل لديك أقوال أخرى؟

عايزة تقولي حاجة تانية؟

خديجة: أيوه يا بيه. عيشة مقلعاني الحلق... وأمها هي

فرحات: أفّ.... يا بتّ غير اللي قلتيها

خديجة: هو أنا لسّه قلت حاجة؟! ". (إدريس: جمهورية فرحات، 1957، ص260).

إنَّ الكاتب هنا يستعمل التحوّل الشفري ما بين الفصحى (هل لديك أقوال أخرى)، والعامية في باقي النص، (في الحوارات)، كحيلة أدبية تعكس الواقع، وتعيد تعريف وبناء لتطابق لهويات أبطال الرواية، فكلُّ شفرة/مستوى يعطي دلالات عميقة لمستعمليه، ومن ثَمَّ يعطي وظيفة داخل المجتمع. ويمكن أن تكون طريقة الكاتب هذه وسيلة في يده من أجل التأثير على قراءه، كما أنَّ استعمال العامية بهذه الطريقة في الأدب توحي بهويات أبطال العمل الروائي، وتعكس الموقف والانتماء وأيدولوجية المؤلف، وفي حالة إدريس فإنَّه يستعمل العامية للتعبير عن التعاطف مع النظام الاجتماعي. (Bassiouney, R. 2010A: P. 103 – 104).

وقد حاولت ريم بسيوني في دراستها حول الهوية واختيار المستوى اللغوي في "الحب في المنفى" لهاء طاهر، الهوية باعتبارها عملًا متتابعًا جاريًا، يبنى ويتغير من خلال مجموع من الخبرات الحياتية. (Ibid., P. 107)، والهوية متعددة، وأهمها الهوية العرقية، وهوية النوع، وعمومًا الهوية بأنواعها مشيدة بطرق مختلفة، كما أنَّ اختيار المستوى اللغوي/ الشفرة مظهر لهويتهم، ومرتبط غالبًا مع هدف، ومحدد بدور المتكلم في محادثة في نقطة محددة. (Ibid., P. 107).

رأت ريم أنَّ الفصحى مستعملة كأسلوب موضوعي للمؤلف يعكس الشعور بالنفي والحنين إلى الماضي الذي يهيمن على الرواية، وترى أنَّ مفهوم المقامية/ التأشيرية (Indexicaltity) يمكن أن يساعد في توضيح استعمال التحوّل الشفري واختيار الشفرة في هذه الرواية، فالفصحى مستعملة في سياقات مختلفة، ومرتبطة بالرسمية، والموضوعية، وفي ترجمة ما تقوله صديقته الأجنبية بلغة أجنبية، في حين استعمال العامية مرتبط بالحميمية، وعدم الرسمية، ومع الأطفال. (Ibid., P.114).

ولنحاول رؤية ما فعله الأديب خيري شلبي في روايته "الوتد" فقد استعمل المستوى الفصيح للشخصية البطل في روايته، وهي "فاطمة تعلبه"، يقول على لسانها وهي الفلاحة:" آه... لم يعد أحد في هذه الدار يرحمني... لقد تعبت وآن لي أن أستريح (خيري شلبي: الوتد، ص 8.)، وكذلك: "لا أحد في هذه البلدة كلها يجرؤ على معاكسة امرأة متزوجة من ابن الحاجة تعلبة وشقيق الحاج درويش.. اللهم إلا أن تكون هي التي تجلب المعاكسة.

ولننظر إلى الحديث الذي يدور بين "هانم " ونسوة البيت والحاجة تعلبة: "وتعرف "الحاجة تعلبة" أنَّ "هانم" مستمعة جيدة... لكنها مثيرة للإحساس بالنبل دافعة إلى الضحك مع ذلك، عن عفريت قابلها ذات فجر كاذب وهي تملأ البلاص من الترعة فوقفت له صامدة مسلحة بآية الكرسي، فتخاذل أمامها وصار يلاعبها، فصاحت "سليمان" فاختفى العفريت في الحال، ووجدت أمامها رجلًا مقبلًا يجري نحوها صارخًا: "مالك يا ست فيه إيه" فضحكت قائلة إنها كانت تنادى سليمان، فقال لها إنه هو الآخر اسمه سليمان، وقد جاءها منقذًا... فعرفت أنه سيدنا سليمان، والدليل على ذلك أنه ظل سائرًا خلفها يحرسها حتى باب الدار وقال لها " سلمي على الحاجة تعلبة والحاج درويش" فنظرت فلم تجده.

وإذ يبدو عدم التصديق في عيون النسوان تزأر فيهن "تعلبة" صائحة: ويخلق ما لا تعلمون.. لماذا لا يكون سيدنا سليمان وعلى كل حال ما دام قال لها سلمي لي على الحاجة وعلى درويش فإنه يكون سيدنا سليمان هو بعينه. ما دام غير معروف بشخصه لها وما دامت لم تره من قبل ولا تعرف له شبهًا في البلد.

إنه هو إذن.. إنني لا أكف عن ذكر الله وقراءة آياته ولابد أنه يعرف ذلك ويرسل لي السلام من أجله..."

كلُّ الشخوص تتكلم اللهجة ما عدا" فاطمة تعلبة" بطل الرواية، كما رأينا من النص، وفي اطلاعي على الرواية لم أجدها تتكلم العامية إلَّا في حالة الغضب، من ذلك: "فمن يومها لم يفتح فمه بملاحظة عليها. مع ذلك فحين تغضب منها " الحاجة تعلبة" لسبب من الأسباب فإنها تسبها صائحة:

.. آه يا مرة يا للي ما عندكيش خشا ولا وقار..."

وبطبيعة الحال لا يمكن أن تكون" فاطمة تعلبة "وأمثالها يتكلمون الفصحى في الواقع، ربَّما هذا الاستعمال للفصحى لكي يصف القوة التي تمتلكها الأم، حتى ابنها الكبير الحاج درويش يتكلم العامية في الرواية كلّها، وهذا يعكس هوية الأم المهيمنة، ومن ثَمَّ يصبح اختيار الشفرة اللغوية (الفصحى) مستعملًا كرمز يعطي القوة، وتخلص د/ريم بسيوني إلى أنَّ الحالة اللغوية الموجودة في عالمنا يمكن أن تكون موظفة كأداة أسلوبية في أيدي الكتاب. (Bassiouney, R. 2010 A: P. 116).

وللإجابة عن لماذا في حالة الغضب والشتم يجعل المؤلف "فاطمة تعلبة" تنطق بالعامية على عكس ما هو حاصل في الرواية؟ أقول ربَّما لو جعلها تنطق الفصحى في ذلك لكان بعيدًا تمامًا عن الواقعية. ومن ثم يتضح أنَّ التحوّل ما بين التنوعات اللغوية ليس عشوائيًا، وإنَّما تستعمل لخلق تأثير على الجمهور/المتلقين، فهي عملية مستعملة كأداة أسلوبية لخلق تأثيرات على السامعين، فليست القضية قضية قدرة المتكلم على التحدث بالعربية الفصحى، فمثلًا الرئيس عبد الناصر كان قادرًا على التحدث بالفصحى الصحيحة والتحدث بلهجة القاهرة الخالصة، والخلط بينهما لكنه يستعمل كل هذه المستويات. وهذا بإرادته لينجز تأثيرًا في متلقيه، فالموقف المزدوج اللغة في واقعنا اللغوي يعتبر جزءًا من التحوّل الشفري (ما بين المستويات اللغوية) له وظيفة خطابية ممثلة في ترك تأثير كبير محتمل على الجمهور. (Bassiouney, R. 2009: P. 282).

وقضية استعمال اللهجة في الأدب ترجع - كما يرى الباحثون- إلى أنَّه على الأرجح أنَّ جيلًا جديدًا من الكتّاب رأى نفسه كمرآة تعكس صورة المجتمع الذي تعيش فيه، بكلّ عاداته وتقاليده؛ بما أن الكاتب يرغب في أنَّ روايته يمكن أن تصبح وسيلة للوصف الاجتماعي والنفسي لمجتمعهم، ومن أجل الوصول إلى كلّ القراء العرب للتعبير عن صوت الظروف الواقعية لمجتمعاتهم، فإنَّ كثيرًا من الكتاب قد طوروا تقنية جديدة للتعبير عن عاطفتهم القوية، وإيجاد طرق لكسر القوالب القديمة. (Abboud- Haggar, S. 2010: p.202.). في هذا السياق تقارن هاجر عبود استخدام المستويات اللغوية في راوية (يعقوبيان) لعلاء الأسواني ورواية (بنات الرياض) لرجاء الصانع، لتجد أنَّ واحدة من السمات البارزة عند الأسواني هي التلاعب بالواقع المزدوج باللغة في واقعه اللغوي، وتضميناته للمعنى الاجتماعي، أمَّا الكاتبة السعودية رجاء الصانع فقد رأتها الباحثة قد أفادت روايتها بخصائص التنوعات اللغوية، وبالازدواج اللغوي الحاصل، فهي حقيقة قد وصفت المجتمعات العربية عبر التنوعات المستعملة بسماتها اللغوية. (Ibid., P. 210.). وتخلص إلى أنَّ الروائي العربي يجد نفسه ملزمًا لإبداع تنوع لهجي مكتوب يلجأ من خلاله إلى الواقعية والتجديد، وهذا يظل تحديًا لكتاب القرن الواحد العشرين. (Ibid., R. 2010B: p. 213.). ورغم التباين في قبول هذه النتائج التي خلصت إليها الباحثة عند النقاد إلَّا أنَّ هذا هو الواقع الحاصل لدى أغلب الروائيين.

إنَّ التحوّل الشفري ما بين التنوعات قد أصبح مفهومًا على أنَّه أداة لدى كثير من الأدباء، فاستعمال أسلوب معين للغة له دلالات عميقة مرتبطة

بهذا الأسلوب داخل المجتمع، فهناك علاقة مباشرة ما بين اختيار المستوى اللغوي والهوية، ويظهر هذا واضحًا في المجتمع. ويحاول أن يستغله بعض الأدباء للإفادة منه كوسيلة دالة ومعبرة عن هويات الشخوص، ومنها ما درسه الباحثون في اللسانيات الاجتماعية، وكان تطبيقهم على العربية، ومن ذلك دراسة علاقة استخدام المرأة العربية للفصحى بهوياتهن، فهناك من رأى أنَّ المرأة في البرامج تعبر بالعربية الفصحى كمثقفة مثل الرجل، وليس لديها أيَّة مشكلة في استعمال العربية الفصحى كرمز للنفوذ والثقافة الرفيعة، فهي لا تنشد الجزء الحضري من هويتها، وإنما تنشد بذلك الجزء الرسمي/الموثوق به والمهني، وهذه النتيجة)(Bassiouney, R. 2010B: p. 119 تختلف دراسات أخرى جاءت نتائجها مختلفة عن تلك النتيجة.

وبدأ منذ فترة اتجاه في بعض صحف المعارضة المصرية في استعمال اللهجة في الكتابة، فبعض هذه الجرائد استعمل العامية المصرية في عناوين مقالاتهم، وخلط ما بين اللهجة والفصحى الحديثة في عناوين وكتابة بعض المقالات، وهذا شيء جديد في لغة الصحافة، وهذا مخالف لما تصوره (فرجسون) في مقالة(1959) حول الازدواجية اللغوية، وكتب (هولز) في كتابه: "العربية الحديثة"(1995) أنَّ استعمال اللهجة في الصحافة والمجلات محددة بموضوعات غير رصينة، مثل الرياضة والموضة، غير أنَّه يقول إنَّه في أحيان كثيرة تكون اللهجة مستعملة بتعمد في المقالات لخدمة غرض خاص، ويضرب مثالًا لذلك بمقال مطبوع في صحيفة الشرق الأوسط في 27 أغسطس 1992م، والمقال لباسم الجسر، كاتب لبناني، ناقش في المقال الانتخابات اللبنانية، وضَّح فيه أنَّ الحياة السياسية في لبنان مؤدلجة جدًا، ومنفصلة عن المخاوف اليومية للناخبين، يقول باسم: "الله يرحم أباك، شو بدك من كل ها الفلسفة وليش عمّ.. "، يعلق (هولز) على استخدام اللهجة هنا أنَّ صيغة الكلام كثيرًا ما تكون جزءًا من الرسالة، فيمكن لهذا الكلام الشعبي البسيط أن يعطي درسًا سياسيًا خاصًا. (Holes, C. 1995: p.309).

إذا كان الوضع كما يصفه (هولز) في كتابه المنشور في (1995) فإنَّ زينب إبراهيم في بحثها (2010) درست ثلاث صحف من مصر (الأهرام الجريدة الحكومية في مصر، الدستور والمصري اليوم)، الثانية والثالثة جريدتان مستقلتان. وقد حاولت الكشف عن ظاهرة التحوّل الشفري ما بين مستويات العربية الفصحى والعامية في هذه الصحف في مادة ترجع إلى عام 2008م، وقد اتضح من البحث أنَّ هذه الظاهرة موجودة في الدستور والمصري اليوم، واحتلت الدستور مكانة عالية في هذه الظاهرة، في عناوين المقالات المستخدمة للعامية، فاقت المصري اليوم، في حين لم تستعمل الأهرام لغة عامية. وهذا يبرز قضية ماهية الأسباب التي تقف خلف استعمال اللغة العامية في صحف المعارضة، وليس في صحف الحكومية، وتتساءل زينب قائلة: أيكون استعمال اللغة العامية يشعر القارئ بحميمية الكاتب؟ أم أنَّ الكاتب يحاول أن يجعل القارئ يشعر أنَّه جزء من المحادثة؟ مجيبة على هذه الأسئلة من خلال أحد المراجع التي يؤكد صاحبها أنَّ التحوّل الشفري في النص المكتوب ربَّما للتعبير عن معانٍ اجتماعية بطريقة أو أخرى، فربَّما الكاتب يريد من خلال هذه الظاهرة إقامة تضامن مع المخاطب، أو يجعل المقال تفاعلًا مع القارئ.

وسأحاول في الصفحات التالية توضيح ذلك من خلال نصوص صحيفة، ومنها مقال نشر في جريدة الدستور، عنوانه "هو ده عادى!!! " وكاريكاتير: " إيه يا عم باسرقكم.. مالك فيه إيه.. عادى !!" (الدستور: العدد 272 – الإصدار الثاني- 2 يونيو 2010م، ص 15). تتكلم فيه الكاتبة عن كل شيء عادى في حياتنا بشكل فيه سخرية، ومن ثم كان العنوان بالعامية، والسخرية دائمًا مصاحبة بالعامية، وكذلك في الرياضة. انظر إلى عنوان المقال المنشور في صوت الأمة في 2007م "بالبلدي":

يا أهلاوية شدوا حيلكم شويه" في أحد فقراته يقول كاتبه: "الزملكاوية بقالهم ماتشين بيكسبوا بأقدام المدافعين المنافسين... هو إيه الزمالك مش عارف يكسب بنجومه الذين اشتراهم ليه إن شاء الله عموما أقول لمجلس إدارة الزمالك لا تنسوا تضعوا في اللائحة بند مكافأة للمدافعين اللي كسبوكم ماتشين" (صوت الأمة: العدد 325 – الإصدار الثاني، 3 سبتمبر 2007م، ص11).

ربَّما تصدق مقولة (هولز) حينما زعم في كتابه (1995) أنَّ الموضوعات غير الرصينة تكتب أحيانًا بالعامية في الصحافة، غير أنّي أتصور أنَّ الأمر يتعدى ذلك؛ ذلك أنَّه فيما يبدو أنَّ هناك استراتيجية في هذه الصحف التي انطلقت محاولة للتقرب إلى القارئ والحميمية معه، ليس في موضوعات الرياضة والموضة كما ذكر (هولز) فحسب، وإنَّما تعدى هذه الموضوعات إلى الموضوعات السياسية، ومن ذلك ما جاء في الدستور في أغسطس 2009م، مقال بعنوان" يوميات عقلي الباطن في السجق المدني"، حول الحكومة الذكية وثورة الاتصال، سادت في المقال السخرية، واختلطت فيه مستويات العربية السائدة في القاهرة فصحى وعامية، ومستويات مختلطة، يظهر ذلك من الفقرة التالية: "وبوجود الحكومة الذكية، ومع التقدم العلمي وثورة الاتصالات التي حولت العالم إلى قرية صغيرة، حدث تطور هائل في آليات استخراج الرقم القومي كما سأروي لكم: وقفت بإباء وشمم على باب السجل المدني في الهواء الطلق مع بعض المواطنين حتى هلّ علينا أمين شرطة اسم الله، واثق الخطى يمشي ملكًا، ثم وقف على سلمة أعلى من مستوانا المنحط، ومد يده العطوف ليأخذ من أيدينا المتبتلة استماراتنا فبدأ ملكًا متوجًا وسط حاشية، ثم رفع إصبعه السبابة، كما كان يفعل الرئيس السادات رحمه الله، محذرًا ومنذرًا: "ما حدش يطلع لي فوق، لما أخلص ح ابعت لكوا أي حد ينادى على أساميكوا ".... وقال له: نادي على أسامهم واللي موجود خليه قاعد (الدستور، العدد 232 – الإصدار الثاني، 26 أغسطس، 2009م، ص16)، ثم تقول الكاتبة في المقال نفسه: "... ما أكدبش عليكوا، أنا اترعبت، ثم خرجت من الغرفة، وبعد أن تأكدت أنه لن يسمعني قلت وسط الناس: هو بيزعق كده ليه؟ إحنا مواطنين دافعين فلوس، ما حدش يزعق لنا، انتوا واخدين مننا فلوس عشان نجدد الرقم القومي كل سبع سنين؟ هو فيه حد بيعمل كده؟ دي سرقة علني، وكمان تزعقوا لنا؟".

يحدث التحوّل الشفري هنا عندما اقتبست الكاتبة ما قاله أمين الشرطة بالعامية، وهذه وظيفة من وظائف التحوّل الشفري وضحها (جومبيرز)– كما وضحنا آنفًا- كما أنَّها أضفت للطابع الشخصي فيما كتبته بالعامية حينما قالت الكاتبة: " إحنا مواطنين."، كما أنَّ هناك حوافز تقف وراء هذا السلوك الواضح في المقال من تحول شفري ما بين الفصحى والعامية، ومنها تقديم أقوال الحياة اليومية وللسخرية أو الازدراء، بمعنى أن التحول ما بين الفصحى للعامية جاء بغية الهزل أو السخرية، ولذا فإنَّ استعمال واحد من التنوعات أو آخر يعتمد بقوة على الوظيفة، حتى في مقالات الصحف في الموضوعات السياسية.

ومن ثَمَّ فإنَّ ما يقترحه (بيل) من كون الأسلوب هو ما يفعله المتكلم باللغة في علاقته مع الناس الآخرين. فالكاتب يختار الأسلوب الذي يراه مناسبًا مع المتلقين(Bell, A. 1997: P. 243)، فهو يتحول ما بين الأساليب/ الشفرات اللغوية ليؤدي تأثيرات على المتلقين، اعتمادًا على علاقته بهم، كما أنَّ الأسلوب يستمد معناه من مناسبة السمات اللغوية مع المجموعات الاجتماعية الخاصة.(Ibid., P. 243)، ذلك أنَّ التقييم الاجتماعي لأي مجموعة هو أنَّها مرتبطة بسمات خاصة منها السمات اللغوية، ويتحول أسلوبهم إلى كونه مرتبطًا بخصوصية بها، وحينما يستخدمه الكاتب فإنَّ ذلك تأشير/دلالة على ارتباط بهم، وقد ذكرت (مايرز- أسكوتن) أنَّ كلَّ شفرة/أسلوب لغوي له تأشير للمجموعة المرتبطة به (Myers – Scotton, C. 1986: P. 404). نرى في المادة اللغوية التي عرضتها من شعر ورواية وصحافة تحولًا ما بين الأساليب التي يمثل كلُّ أسلوب منها شفرة (Code)، ويمكن تفسير ذلك بما ذكره بيل من أنَّ المتكلم يستعمل تحوّل الأسلوب في المقام الأوّل استجابة للجمهور، ليكون أكثر مماثلة مع الجمهور الذي يكلمونه/ يكتبون له، والتباين الحاصل في الأسلوب داخل كلام أي متكلم فرد مستمد من محاكاة التباين الموجود بين المتكلمين في الوضع الاجتماعي (Bell, A. 1997: P. 245). ولننظر إلى بعض الأمثلة التالية، لنحاول تفسير الاستراتيجيات التي تقع خلفها، ومنها ما جاء في مقال بعنوان "منتهى السعادة" في الدستور، 28 أبريل، 2010م، يقول فيه كاتبه: " قلت له ما جاوبتش برده عن سؤالي... هل الزواج طموح مشروع؟ سحب برما السماعة الأخرى من إذنه ولف السلك جو الأي بود ثم وضعه في جيبه" (الدستور: العدد 267 – الإصدار الثاني- 28 من أبريل، 2010م، ص 22) ثم يقول: "وفي الأربعين يكون طموح الرجل منصبًا في البحث عن نزوة لقناعة ما تهبط عليه تقول إن الزواج بقى عامل زي تقسيمة في تدريب.

استعمال التحوّل من الفصيح إلى المستوى العامي أتصوره استراتيجية لدى صحف المعارضة ربَّما للتقرب للجمهور وزيادته، ومناقشة قضاياه بالمستوى الذي يعيش داخلهم ومرتبط بهم، وتحت عنوان "ضربة شمس" في العدد نفسه من الصحيفة السابقة، يبدأ كاتبه مقاله بقوله: "أنا مش برئ ولا مجرم ولا طيب ولا شرير ولا ديب ولا حمل أنا كل دول في بعض.. أنا بني آدم مش عارف وطنه الأصلي الأرض ومسافر للسما وطنه الأصلي ومسافر الأرض؟!"، بدأ مقاله إذن بالشعر العامي، وكتب بالفصحى واقتبس عددًا من الجمل العامية، وهذا حافز من حوافز استعمال التحوّل ما بين المستويات اللغوية في لغة واحدة أو بين اللغات.

في العدد نفسه من الصحيفة نجد مقالًا تحت عنوان (هانيبال ليكتر وفورست جامب.. تفتكروا مصر محتاجة أنهي كاراكتر فيهم أكتر؟! موضوع عن اللامؤاخذة " العنوان من حيث الصياغة مكون من الفصحى والعامية، وعلى غراره جاء ما في المقال، فقد بدأ الكاتب المقال بالفصحى فكتب: "1- دكتور هانيبال ليكتر هذه الشخصية الاستثنائية.. التي جسدها أنتوني هوبكنز في الفيلم الحالة صمت الحملات.. ما أروعها وأجملها شخصية".

ثم يتحوّل في المقال إلى العامية فيكتب: " ولاحظ أن سيرة مصر ما جاتش في الموضوع خالص.. هي ليست في الحسابات الشعبية.. على الإطلاق.. مصر إيه يا عمنا اللي دخلها في المواضيع دي.. وبعدين مافيش ماتشات إلومين دول.. إيه بقى اللي جاب سيرة مصر؟! عايزين نشوف مصلحتنا فين ومع مين.. ومين اللي حينفعنا ويفتح بيوتنا.. بس كده.. مش عايزين نخش في متاهات يا باشا..".

ولا تصنع ذلك "الدستور" فقط؛ فصحيفة "التحرير" تسير وفق الاستراتيجية نفسها في استخدام التحوّل بين الفصحى والعامية في المقالات، ومن ذلك ما جاء في العدد (155)، حيث جاء مقال بعنوان: "أيام الغاز والترامادول" يبدأ الكاتب المقال بالخلط بين مستويات العربية، فيقول: "حاويتان بحريتان وصلتا مصر خلال الكام يوم اللي فاتوا.. إحداهما وصلت ميناء السويس تحمل 7 طن قنابل غاز سام.. إحداهما لم تتأثر بالجدل.. اللي هي حمولة قنابل الغاز القادمة من أمريكا (صحيفة التحرير، العدد (155) 4 ديسمبر 2011م.).

لقد وصل استخدام المستويات اللغوية المختلطة من الفصحى والعامية، والعامية حدًا ملاحظًا في الكتابة الخاصة بالسياسة، وصار هذا الاستخدام له وظائف متعددة، ومن ذلك أن يستعمل عنوان" ألفاظ بسيئة (التحرير، الخميس 15 سبتمبر 2011م، العدد 275، ص 14)، محورًا الكلمة بصيغة عامية مقصودة"، تحاول صاحبة المقال بعنوانها هذا، وكذلك بالتحوّل الشفري ما بين مستويات الفصحى والعامية، والمستويات المختلطة فصحى وعامية، أقول تحاول الكاتبة في مقالها هذا توظيف المستويات لمعانٍ اجتماعية، وللسخرية، ولتبسيط السياسة وتعميقها، وإنزالها من المستوى الفصيح إلى المستوى اللغوي للجماهير.

يلاحظ التحول بين المستويات اللغوية، وهذا عن قصد، ولا يرجع إلى عدم قدرة على الكتابة بالعربية الفصحى، وإنما هي استراتيجية فاعلة من وجهة نظر القائمين عليها لتوسيع العلاقة بين هؤلاء الكتاب- أو قلْ هذه الصحف–والجمهور المصري، وتعميقها، وهي قريبة ممّا كان يفعله عبد الناصر في استخدام هذه الظاهرة لتعميق علاقته بطبقات جمهوره كلِّها، وتوصيل رسائله ومبادئه التي ينادي بها. ولعل هذا يؤكد أن هناك وظيفة

اجتماعية لإظهار الدور الذي تؤديه اللغة في المجتمع تضاف إلى الوظائف التواصلية للغة، وهذا ما يتحقق في ظاهرة التحوّل الشفري. (الطالقاني، م. 2024، ص 737).

وتُعرَف هذه الظاهرة (التحوّل الشفري) في مجتمعات لغوية عديدة، ويرى (فاسولد) أنَّ بعض الحالات نجد توافقًا صارخًا حول تفسير التحوّلات بين اللغتين العليا والدنيا ضمن المحادثة الواحدة، ومن ثَمَّ فإنَّ استخدام المستوى الأعلى بشكل أساسي يعني أنَّ المتكلم يستثير قيم المجتمع الواسع ومنزلته، أمَّا اختياره المستوى الأدنى فإنَّه بالمثل يستدعي الأنماط الثقافية الخاصة بالمجتمع الأصغر الذي ينتمي إليه (فاسولد، رالف: علم اللغة الاجتماعي للمجتمع، ص 358.). ويرى أنَّه من الممكن أن نجد تشابهات في التفاصيل في كيفية تطبيق هذا المبدأ، كما أنَّ هناك ثلاثة تطبيقات خاصة تظهر تشابهات صارخة بين مجتمعات لغوية منفصلة جدًا عن بعضها في جميع أنحاء العالم، وهذه المستويات الثلاث هي: استخدام اللغة العليا لجعل التغيير أكثر رسمية وذات سلطة. واستخدام اللغة العليا في تفسير بيت القصيد، أو توضيحه من وراء قصة غالبًا ما كانت تحكى باللغة الدنيا. واستخدام المستوى الأعلى للتأثير في ولد ما وإفهامه أنَّ الأمر جدي.

غير أنَّه رغم هذه التشابهات في طريقة تفسير اختيار اللغة في جميع أنحاء العالم إلَّا أنَّه ليس من الممكن دائمًا تفسير كلِّ تبديل لغوى بصورة لا يكتنفها الغموض حتى في المجتمع الواحد، ورغم ذلك فإنَّ توزيع الوظائف في مستويات اللغة في المجتمع اللغوي الواحد سواء أكان ذا ثنائية لغوية أو ازدواجية لغوية يكاد يكون محددًا إلى حد ما، ولننظر إلى قول الجاحظ الواعي لهذا التوظيف منذ أكثر من ألف عام. يقول الجاحظ " ومتى سمعت– حفظك الله– بنادرة من كلام الأعراب، فإياك أن تحكيها إلَّا مع إعرابها، ومخارج ألفاظها، فإنَّك إن غيّرتها بأنَّ تلحن في إعرابها، وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير، وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام، وملحة من ملح الحشوة والطغام، فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب أو تتخير لها لفظًا حسنًا أو تجعل لها من فيك مخرجًا سريًا فإن ذلك يفسد الإمتاع بها، ويخرجها من صورتها ومن الذي أريدت له، ويذهب استطابتهم إياها، واستملاحهم لها". (الجاحظ: البيان والتبيين، ج 1، 145-146).

ويتضح من كلام الجاحظ أنَّ في عهده قد استقرت مستويات لغوية مختلفة من حيث البنية والوظيفة، وكذلك نهي الجاحظ عن مخاطبة العامة بكلام الخاصة، والعكس بالعكس. وعدم الخلط بين مستويات العربية التي يتضح أنَّها كانت واضحة تمامًا من حيث البنية والوظيفة، لكننا نقر في النهاية أنَّ الواقع اللغوي العربي يحتاج لمزيد من البحوث العميقة لدراسته بشكل علمي صحيح بعيدًا عن الأيدولوجيا حتى تضح الحقائق العلمية في هذا الواقع اللغوي.

النتائج

يلاحظ أن استعمال التحول الشفري يأتي للتعبير عن معانٍ اجتماعية، ولتوصيل قيم اجتماعية محددة، أو كأداة أسلوبية لإبداع تأثيرات على المتلقين؛ ذلك أن التحول الشفري له وظيفة خطابية ممثلة في ترك تأثير محتمل على الجماهير. فمن خلال هذه النصوص العربية جاء التحوّل ما بين الفصحى والعامية، وصار نهجًا واضحًا موظفًا في بعض الصحف، ربَّما محاولة من صحف المعارضة لإنزال النقاش في السياسة من برجها العالي، حيث تكون الكتابة فيها بالفصحى إلى الحديث بكلام الحياة اليومية رغبة من الكتّاب لتوصيل أفكارهم إلى الجمهور، والتقرب إليهم، أو لحميمية الكاتب مع القراء، أو للسخرية والازدراء، أو محاولة من الكاتب أن يجعل القارئ يشعر أنه جزء من المحادثة. في حين تأتي الفصحى رمزًا للقوة والهيمنة والرسمية.

كما جاء عند (جومبيرز) توظيف التحوّل يأتي من خلال اقتباسات، وهذا ما تحقق في مادة البحث، ومنه ما جاء عند شعرائنا درويش والقاسم، عندما اقتبسوا موروثات شعبية بمستواها اللغوي، ووظفاها داخل قصيدة فصيحة، وبتوظيف الموروث الشعبي بما يحتويه ليحمل مضامين مشحونة بعواطف وأحاسيس تحمل هموم الإنسان الفلسطيني، ويقدم شهادة بالاعتزاز بموروثه، وللتذكير بالهوية والأرض.

جاءت المستويات العامية في النصوص السياسية لتفسر ما جاء بالفصحى، وكذلك شحن المتلقين بما يريد أن يقنعهم به، أو للتقرب إليهم. ويمكن لي أن أقول جاءت الفصحى مرتبطة بالرسمية والموضوعية، في حين جاءت العامية مرتبطة بالحميمية وعدم الرسمية. وعلى أية حال ما هو ملاحظ أن استعمال التحول الشفري يعتمد بقوة على الوظيفة التي يؤديها كل مستوى، كما أن المستوى يستمد معناه من مناسبة السمات اللغوية مع المجموعات الاجتماعية.

ولهذا كله فإن المتكلم يستعمل التحوّل الشفري استجابة للجمهور، وليكون أكثر شبهًا بالجمهور الذي يكلمه/ أو يكتب له، أما التباين الحاصل في الأسلوب داخل كلام أي فرد فمستمد من محاكاة التباين الموجود بين المتكلمين في الواقع الاجتماعي.

ملاحظات

يترجم هذا المصطلح بعدد من المقابلات العربية، فقد ترجمته ريم بسيوني بالمقابل "تحويل الشفرة" انظر كتابها: علم اللغة الاجتماعي في الوطن العربي، ص 25. وترجمه رمزي بعلبكي بالمقابل " تبديل الشفرة " انظر (Ramzi , M , B: Dictionary of Lingustic Terms English – Arabic)، وترجمه علي القاسمي بـ (التحوّل اللغوي) (انظر بحثه: لغة الطفل العربي. ويترجمه فواز العبد الحق وعبد الرحمن أبو ملحم بـ (التناوب اللغوي)، انظر: ترجمتهما لمعجم:

معجم اللغويات الاجتماعية، ص)70، ويترجمه محمود عياد بالمقابل (تحويل الشفرة)، (انظر ترجمته لكتاب هدسون: علم اللغة الاجتماعي، ص 362.)

(2) مصطلح (Code) له دلالاته المتنوعة، يعرف من خلال الباحثين المختلفين، متضمنًا تنوعًا من المفاهيم والأفكار في هذه التعريفات، وقد عرض لعدد من معانيه في مجالات عدة مستعمل فيها، ففي التواصل الكود عبارة عن عرف/ عادة وضعت لتحول جزء من المعلومة(خطاب، كلمة أو عبارة) إلى صيغة أخرى، الكود منهج مستعمل لتحويل رسالة إلى صيغة غامضة، وفي علم العلامات مفهوم الكود مهم جدًا، فقد شدد دي سوسير على أنَّ العلامات تكتسب معناها وقيمتها عندما تفسر في علاقتها مع الأجزاء، ويعتقد دي سوسير أنَّ تفسير العلاقات يكتسب بإقامة تقليد أو كودات/ شفرات مستعملة لمعنى تواصلي، وكلُّ نص هو نظام من العلامات المنظمة وفقًا لكودات وكودات متفرعة تعكس قيمًا معينة، ومواقف ومعتقدات، وافتراضات وممارسات، انظر تفصيل ذلك في: (Mabule, D. 2015: P. 339.)، ولا يعني الكود شيئًا غير متنوع أو لهجة من لغة، ومن ثَمَّ فإنَّ التحوّل الشفري هو تحول من تنوع لغوي إلى آخر من اللغة نفسها، أو من لغات أخرى مختلفة، في كلام محكي أو مكتوب. انظر: (Ammon , u. 2001: P. 214.)، وعند (جومبيرز) الكودات مجموعة من التباينات المشاركة في الحدوث، وعند (إرفين– تريب): يحتوي الكود أو التنوع على مجموعة منظمة من الإشارات اللغوية التي تشترك في الاستعمال في سياقات محددة، انظر (Ervin – Tripp, S. 1973: P.90) ويعلق (ألفاريز) على هذا مشيرًا إلى أنَّ هذا توسيع لمجال الكود، وهذا ربَّما يقدم انحرافًا عن معنى الكود الأصلي في نظرية التواصل، وهو: التحدث بتباينات حرة، أو تباينات اختيارية تقبل كود التواصل. انظر: Alvarz- Coccamo, C.1988: P. 34.

.

المصادر والمراجع

إدريس، ي. (1957م). *جمهورية فرحات*. القاهرة.

بدوي، س. (1973م). *مستويات العربية المعاصرة في مصر*. دار المعارف بالقاهرة.

بسيوني، ر. (2018م). *علم اللغة الاجتماعي في الوطن العربي (محاور ونظريات)*. طبعة مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية.

بعلبكي، ر. (1990م). *معجم المصطلحات اللغوية*. الطبعة الأولي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

صحيفة التحرير. العدد (155) ديسمبر 2011م.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (د.ت). *البيان والتبيين*. تحقيق هارون، ع. طبعة الخانجي، القاهرة د ت.

أبو الحديد، م. (1947-2006م). *موقف اللغة العربية العامية من اللغة العربية الفصحى*. منشور ضمن كتاب: اللهجات العربية الفصحى والعامية، إشراف أ د كمال بشر. طبعة مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

درويش، م. (1994م). *الأعمال الكاملة*. ج1،)ط14)، دار العودة، بيروت، لبنان.

صحيفة الدستور. الأعداد 232، 267، 272– الإصدار الثاني.

سوان، ج. وآخرين. (2019م). *معجم اللغويات الاجتماعية*. ترجمة د. العبد الحق، ف وأبو ملحم، ع. طبعة مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز لخدمة اللغة العربية.

أبو شاويش، ح. (2007). *توظيف التراث الشعبي في الشعر الفلسطيني "شعر سميح القاسم نموذجًا"* . أبحاث ووقائع المؤتمر الأول للتراث الشعبي الفلسطيني في جامعة القدس المفتوحة 2007/11/18م.

شلبي، خ. (2004م). *الوتد*. طبعة كتاب في جريدة، العدد 572، بيروت، لبنان.

صحيفة صوت الأمة. العدد 352 – الإصدار الثاني- 3 سبتمبر 2007م.

الطالقاني، م. (2024). *دوافع الشباب العربي لاستخدام التناوب اللغوي بين اللغتين العربية والإنجليزية في سياقات الخطاب الرسمي وغير الرسمي*. Lark Journal، 16(3)، ج2.

عباس، إ. (1978م). *اتجاهات الشعر العربي المعاصر*. سلسلة عالم المعرفة بالكويت.

عبد الناصر، ج. (د.ت). *المجموعة الكاملة لخطب وتصريحات الرئيس جمال عبد الناصر*. إعداد عبد الناصر، هـ.

فاسولد، ر. (2000م). *علم اللغة الاجتماعي للمجتمع*. ترجمة الفلاي، إ. طبعة جامعة الملك سعود.

القاسم، س. (1970م). ديوان: *ويكون أن يأتي طائر الرعد*. طبعة دار العودة، بيروت، لبنان.

القاسمي، ع. (2009م). *لغة الطفل العربي*. طبعة مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان.

هدسون، ر. (1990م). *علم اللغة الاجتماعي*. ترجمة عياد، م. (ط 2)، عالم الكتب بالقاهرة.

الورقي، س. (1979م). *لغة الشعر العربي الحديث*. الإسكندرية.

References

Abboud-Haggar, S. (2010). Linguistic varieties in twenty-first century Arabic novels: An applied study. In R. Bassiouney (Ed.), *Arabic and the media* (pp. 201–215). Brill.

Abdel-Jawad, H. (1986). Social functions of language variation. *Al-Abhath, 34*, 21–37.

Albirini, A. (2011). The sociolinguistic functions of code-switching between Standard Arabic and dialectal Arabic. *Language in Society, 40*, 537–562.

Alvarez-Cáccamo, C. (1998). From "switching code" to "code-switching": Towards a reconceptualization of communicative codes. In P. Auer (Ed.), *Code-switching in conversation: Language, interaction, and identity* (pp. 29–48). Routledge.

Alvarez-Cáccamo, C. (2005). A postscript: Code-switching and social identity. *Journal of Pragmatics, 34*, 403–410.

Bassiouney, R. (2002). The relationship between speaker role and code choice: A detailed analysis of a modern political speech in Egypt. *Language, 3*, 77–100. Cairo Linguists Group.

Bassiouney, R. (2009). *Arabic sociolinguistics*. Edinburgh University Press.

Bassiouney, R. (2010a). Redefining identity through code choice in *Al-Hubb fi 'l-Manfa* by Baha' Tahir. *Journal of Arabic and Islamic Studies, 10*, 109–118.

Bassiouney, R. (2010b). Identity and code choice in the speech of educated women and men in Egypt: Evidence from talk shows. In R. Bassiouney (Ed.), *Arabic and the media* (pp. 97–121). Brill.

Bassiouney, R. (2013). The social motivation of code-switching in mosque sermons in Egypt. *International Journal of the Sociology of Language, 220*, 49–66.

Bell, A. (1997). Language style as audience design. In N. Coupland et al. (Eds.), *Sociolinguistics* (pp. 240–250). Macmillan Publishers.

Blom, J., & Gumperz, J. (1972). Social meaning in linguistic structure: Code-switching in Norway. In J. Gumperz & D. Hymes (Eds.), *Directions in sociolinguistics* (pp. 407–434). Holt, Rinehart and Winston.

Gumperz, J. (1972). The speech community. In P. Giglioli (Ed.), *The sociology of language* (pp. 219–231). Penguin Books.

Gumperz, J. (1982). *Discourse strategies*. Cambridge University Press.

Hammam, M. (2011). Text vs. comment: Some examples of the rhetorical value of the diglossic code-switching in Arabic—A Gumperzian approach. *Pragmatics, 21*(1), 41–67.

Hary, B. (1996). The importance of the language continuum in Arabic multiglossia. In A. Elgibali (Ed.), *Understanding Arabic: Essays in contemporary Arabic linguistics* (pp. 69–90). The American University in Cairo Press.

Holes, C. (1993). The uses of variation: A study of the political speeches of Gamal Abdel-Nasir. In M. Eid & C. Holes (Eds.), *Perspectives on Arabic linguistics V* (pp. 13–45). John Benjamins Publishing Company.

Holes, C. (1995). *Modern Arabic: Structures, functions, and varieties*. London and New York: Longman.

Ibrahim, Z. (2010). Cases of written code-switching in Egyptian opposition newspapers. In R. Bassiouney (Ed.), *Arabic and the media* (pp. 23–45). Brill.

Kim, E. (2006). Reasons and motivations for code-mixing and code-switching. *Spring Issues in EFL, 4*(1), 43–61.

Mazraani, N. (1997). *Aspects of language variation in Arabic political speech-making*. Richmond Curzon.

Milroy, L., & Gordon, M. (2003). *Sociolinguistic method and interpretation*. Blackwell Publishing.

Muysken, P. (2000). *Bilingual speech: A typology of code mixing*. Cambridge University Press.

Myers-Scotton, C. (1986). Diglossia and codeswitching. In J. Fishman et al. (Eds.), *The Fergussonian impact* (pp. 403–415). Mouton.

Myers-Scotton, C. (1993). *Social motivations for codeswitching: Evidence from Africa*. Oxford University Press.

Myers-Scotton, C. (1997). Code-switching. In F. Coulmas (Ed.), *The handbook of sociolinguistics* (pp. 217–237). Blackwell.

Myers-Scotton, C. (1998). A theoretical introduction to the markedness model. In C. Myers-Scotton (Ed.), *Codes and consequences: Choosing linguistic varieties*. Oxford University Press.

Woolard, K. (1998). Language ideology as a field of inquiry. In B. Schieffelin et al. (Eds.), *Language ideologies: Practice and theory* (pp. 3–47). Oxford University Press.